المحاضرة الأولى

نشأة الفلسفة في الشرق القديم

لقد جرت عادة المؤرخين أن يبدوا تأريخ للفلسفة باليونان رافضين بذلك أي تأثير للحكمة الشرقية القديمة لا تعدو كونها مجموعة من الأفكار الأسطورية الساذجة التي لا ترتقي إلى مستوى التجريد الذي وصلت إليه الأفكار اليونانية. ويعود ذلك الموقف إلى محاولة الغرب إنقاص والتقليل من إسهاماتهم **–أي الحضارات الشرقية–**في بناء الإرث الإنساني وجعلهم بذلك اليونان منبع الفكر المنظم والممنهج بترويجهم لفكرة **المركزية الغربية** .

أولا: مشكلة نشأة الفلسفة:

يكاد يجمع المؤرخون للفلسفة على أنها قد نشأت في بلاد اليونان منذ القرن السادس قبل الميلاد. ويؤرخ لبدايتها عادة طاليس الذي عاش على ساحل **أيونيا** وولد بمدينة ملطية في عام **624 ق.م**. تقريبا.

وربما يكون من الضروري قبل أن نخوض في مناقشة قضية نشأة الفلسفة أن نتساءل بداية عن الأصل الاشتقاقي لكلمة **فيلوسوفيا philo-sophia** التي يقال عادة إنها لفظة يونانية مشتقة من كلمتين يونانيتين هما: فيلوس-**philos** وتعني صديق أو محب. **وسوفيا– sophia** وتعني الحكمة.

ينظر بعض المتحيزين أن التفكير اليونانيّ قبل ظهور الفلسفة تميَّزَ بأنّه تفكير أُسطوريّ يعتمد على سرد القصّة الخياليّة.

وفي تلك الفترة كانت الأُسطورة، أو ما يُعرَف ب(خطاب الميثوس) هو الفكر السائد عن اليونان، وينظر إليه على أنه فِكر بعيد عن البراهين العقلانيّة، ومع مرور الوقت حدث الفَصل بين فِكر الميثوس (الأُسطوريّ)، وفِكر اللوغوس (العقليّ)، والذي ساعد على ذلك

ظهور الرياضيّات، وظهور العُملة بَدل المقايَضة، وتطوُّر الجانب التجاريّ، والمِلاحيّ للدولة اليونانيّة.

في القرن 6ق.م، بدأت بوادر الحكمة بالظهور على يد طاليس والحكماء السبعة ، ثمّ ظهرت إصلاحات في المجال التنظيمي والسياسي في القرن الذي عقبه، علماً بأنّ هذه الإصلاحات كان لها دورٌ مُهمّ في ابتكار المؤسَّسات السياسيّة، أو ما يُعرَف بظهور الدولة المدينة مما ساهم ذلك في تنظيم الحياة الاجتماعيّة في الحضارة اليونانيّة.

مع ظهور المدينة في الحضارة اليونانيّة، ولأوّل مرّة في تاريخ البشريّة، ازدادت القضايا، والمسائل العامّة بين الناس بشكل غير خاضع للحَسْم، كما أصبح من اللازم إجراء سِجال عَلَنيّ، ونقاش مُدعَّم بحجج، وبراهين، بخصوص القرارات المتعلِّقة بالمصلحة العامّة، وأصبح لكلِّ مواطن الحقّ الكامل في التعبير عن رأيه فيما يتعلَّق بقضايا الشأن العامّ، وساد النظام السياسيّ الديمقراطيّ ضمن نظام الدولة المدينة، ومن الجدير بالذكر أنّ هذه العوامل، وغيرها، مهَّدت الطريق لنشأة الفلسفة التي امتدَّ تاريخ نشأتها في الحضارة اليونانيّة من القرن 7ق.م، إلى القرن 4ق.م

اختلفت آراء الباحثين والمؤرخين بخصوص المكان والزمان الذي نشأت فيه الفلسفة، ويمكن إجمال هذه الآراء في رأيين رئيسيين هما:

الرأي الأول:

في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح، رد أرسطو نشأة الفلسفة إلى اليونان وانحدر بها إلى طاليس في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد، وبهذا يكون أرسطو قد أرجع بداية الفلسفة ونشأتها من حيث المكان إلى بلاد اليونان.

أما بداية الفلسفة ونشأتها من حيث الزمان، فقد أرجعها أرسطو الى الفترة التي عاش خلالها طاليس; أي النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد، وقد استمر هذا الرأي إلى منتهى القرن التاسع عشر، حتى كاد هذا الرأي أن يستقر على أن الفلسفة اليونانية لم تنشأ متأثرة بعناصر شرقية، بل نشأت من تربة يونانية خالصة. وعلى رأس أصحاب هذا الرأي عدد كبير من الباحثين الغربيين والمختصين بالفلسفة اليونانية وتاريخ الحضارة اليونانية، أمثال ونيتشه .(نيتشة فريدريك فيلسوف ألماني يقع ترتيبه بعد هيجل وكانط في سلم الفلاسفة الألمان، ولد سنة 1844 من أسرة من القساوسة لكنه شديد الإلحاد. من أهم كتاباته: الفجر، والعلم المرح، ونشأة التراجيديا... توفي سنة 1990م انظر: موسوعة الفلسفة د/ بدوي.).

وبرتراند راسل وعبد الرحمن بدوي...، غير أن هؤلاء المؤرخين للفلسفة اليونانية لا ينكرون أن تاريخ البشر قد شهد نشوء حضارات عريقة، وعظيمة، في بلاد الشرق، سبقت قيام الحضارة اليونانية، مثل الحضارة التي قامت في بلاد الرافدين والحضارة التي قامت في وادي النيل وكذلك الحضارة الفارسية والهندية. ويؤكد هؤلاء أن التفكير الإنساني قد شهد في ظل الحضارة اليونانيةً تحولا نوعيا جعله يتميز عن نمط التفكير الذي كان سائدا في الحضارات السابقة على الحضارة اليونانية; فأهم ما يميز التفكير في ظل الحضارة اليونانية هوِ التماس المعرفة لذاتها، فالعقل يتجه الى كشف الحقيقة من غير أن تدفعه إلى ذلك أغراض عملية أو غايات دينية، بينماَ التمس الإنسان في ظل حضارات الشرق المعرفةّ ليسد بها حاجات عملية أو يشبع بها عقيدة دينية.

المحاضرة الثانية

وإذا كانتُ الفلسفةُ اليونانية قد نشأت بطبيعتها من أصول يونانية بحتة ولم تتأثر بالحضارة الشرقية، فمن أي نوع من أنواع التربة نشأت هذه الفلسفة؟

فهل الفلسفة نشأت كمعجزة عند اليونان أم احتذى اليونانيون بما كان شائعا لدى الأمم الشرقية القديمة السابقة على اليونان من أفكار فلسفية وعلمية؟.

يرى نيتشه في كتابه" :الفلسفة في العصر التراجيدي عند الإغريق" أن الفلسفة اليونانية قد نشأت عن مصدر صوفي، ويرى بدوي أن هذه النظرة الحيوية قد انقضى عصرها من سنة 1920 تقريبا، ولكن بقي لها مع ذلك كثير من القيمة; لأنهاً دلتنا على مصدر حقيقي صدرت عنه الفلسفة في بداية نشأتها، وهو التصوف أو الدين، مع ملاحظة أن الدين عند الفلاسفة الطبيعيين لم يكنً منفصلا عن الفلسفة، بل كاناً شيئاً واحدا، إلا أن بدوي يرى أنه إلى جانب الدينُ وجدت عناصر أخرى في أحضانها نشأت الفلسفة اليونانية; وهي التفكير السياسي، والتفكير الأخلاقي، فتكون المصادر الرئيسة التي نشأت عنها الفلسفة اليونانية هي العامل الديني والعامل السياسي والعامل الأخلاقي.

الرأي الثاني:

في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، دعا ديوجين في كتابّ ضمنه حياة مشاهير الفلاسفة وآراءهمَ وعرض فيه للحديث عن فلاسفة مصريين، وشرقيين قدماء، وأرجع فيه نشأة الفلسفة إلى تراث الشرق القديم والواقع أن هذا الرأيّ ظلً مهملا لا يلقى استجابةً وتقبلا على النحو الذي لقيه الرأي الأول الذي أطلقه أرسطو وانحاز إليهّ وتبناه كثير منّ الكتاب والمؤرخين الغربيين.

إلا أن هذا الرأي –الثاني– قد نال في القرن التاسع عشر اهتمام بعض المؤرخين الأوروبيين، ولعل من أشهر هؤلاء المؤرخين: ول ديورانت وجورج سارتون.

فأما **ويل ديورانت** فقد ذهب في كتابه الشهير" :**قصة الحضارة** "إلى التأكيد على أن المؤرخين الغربيين من أنصار الرأي الأول، الذين يزعمونً خطأ أن ثقافة اليونان كانت المصدر الوحيد الذي أخذ منه العقل الأوروبي،ّ ستتولاهم الدهشة إذا ما عرفوا إلى أي حد تدين علوم الغرب وآدابه وفلسفاته لتراث مصر وبلاد الشرق الأخرى، وأشار إلى أن هناك في تراث المصريين كتابات قديمة تتصل بالفلسفة الأخلاقية من بعيد، بل إن حكمة مصر القديمة كانت مضرب الأمثال من جانب اليونان الذين اعتقدوا أنهم أطفال إلى جانب حكماء هذا الشعب القديم.

أما **جورج سارتون** فقد أشار إلى أن المؤثرات الشرقية يجب أن تعتبر متقدمة على ما أثمرته جهود اليونان.

إن المؤرخ الغربي منذ **أرسطو** إلى الآن غالبا ما يميل إلى التأكيد على أن الفلسفة والعلم اختراعان يونانيان وأنهما يبدآن من **طاليس الملطي** في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، وقد تابع معظم المؤرخين العرب المؤرخ الغربي في هذا الاعتقاد بحجة أن الفلسفة قد ظهرت لدى اليونان في القرن السادس من خلال نقد اليونانيين الحر المحايد لتراثهم واستنادا على خصائص تميز بها الانسان اليوناني دون سواه من البشر في ذلك القرن. وأنه إذا كان ثمة أفكار فلسفية شرقية قديمة فهي أفكار أسطورية بينما الأخلاقية مجرد حكم ومواعظ علمية.

لكن هذا الميل نحو تأكيد المعجزة اليونانية في نشأة الفلسفة أخذ يتضاءل شيئا فشيئا حينما بدأت تظهر المكتشفات الحديثة لآثار وكتابات فلاسفة الحضارات الشرقية القديمة، حيث بدا للمؤرخ المنصف أن ما كان يردده **أفلاطون وأرسطو** من فلاسفة اليونان عن وجود محكة لدى المصريين القدماء ومن ثم لدى أمم الشرق القديم كان صحيحا، وأنه لا يمكن فهم

إبداعات اليونانيين إلا بردها إلى أصولها الشرقية. وقد أصبحنا الآن- رغم ادعاءات المؤرخين المتعصبين للمعجزة اليونانية – أمام حقيقة لا تنكر لدى الكثيرين من المؤرخين يعبر عنها **شارل فرنر** حينما يقول "إن الفلسفة اليونانية إنما نشأت من تماس اليونان بالشرق" فقد نشأت الفلسفة في المستعمرات التي أقامها اليونانيون في أيونيا الواقعة على حدود آسيا الصغرى حيث وجدوا أنفسهم في تماس مع الشعوب الشرقية. وقد انطلق الفكر الغربي اليوناني من آسيا حيث أنجبت **ملطية طاليس وانكسيمندر وانكسيمانس،** وأنجبت **أفسوس هيراقليطس، وساموس فيثاغورس، وكولوفون اكسينوفان،** وهؤلاء هم أوائل المفكرين اليونانيين في القرن السادس ملاد.

اذن ليس هناك حضاريا ما يسمى بالمعجزة بعد معجزة الحضارة المصرية الشرقية القديمة، فهي الوحيدة من بين حضارات العالم الجديرة بأن تلقب بالحضارة المعجزة. وسبب الإعجاز هنا واضح في نظر المؤرخين؛ فهي الحضارة الوحيدة التي أنشأت نفسها بنفسها في شتى الجوانب على غير مثال سابق. وقد كانت الفلسفة من بين تلك المكتشفات كما يؤكد تاريخ علم المصريات الحديث **Egyptology** حيث يرى العلماء أن مصر كانت مهد التأمل الفلسفي كما نعرفه اليوم.

المحاضرة الثالثة

نماذج من فلسفات الشرق القديم:

زمن هنا وجب قبل أن نسهب في الحديث عن الفلسفة اليونانية، أن نتحدث عن نماذج من فلسفات الشرق القديم خاصة تلك التي أسهمت وتأثر بها فلاسفة اليونان وهذه النماذج موجودة في الحضارات الشرقية الخمس الكبرى التي سبقت في ظهورها الحضارة اليونانية، وهي الحضارة المصرية والحضارة الصينية والحضارة الهندية والحضارة الفارسية والحضارة البابلية **(حضارة ما بين النهرين)**.

الفلسفة المصرية القديمة:

الحكمة المصرية:

يتفق المؤرخون على أن الحضارة المصرية القديمة هي أقدم الحضارات وأعراقها وأبعدها أثرا في تاريخ الحضارات بيد أن هناك من المؤرخين المحدثين يقللون من أهمية مصر كمهد للحضارة ويذهبون إلى أن حضارتها لم تكن أقدم الحضارات الأصلية وأن الحضارة السومرية أكثر منها قدما وأبعد أثر.

ولكن مهما كانت طبيعة الخلاف فإن الحقيقة الثابتة التي لا مناص منها هي أن حضارة مصر تمتاز بقدمها وتضرب بجذورها في عصور سحيقة فضلا عن أنها تمتاز بشمولها لمختلف مظاهر الحياة الإنسانية وما تنطوي عليه من مشكلات ولذلك تعتبر الحضارة المصرية القديمة بحق المهد الأصيل والمعين الاول الذي إستقت منه حضارات الشعوب الأخرى المجاورة لها–حوض البحر البيض المتوسط–

أصبح الكثيرون من مؤرخي الفلسفة يؤمنون بأن جذور الفلسفة قد نبتت في مصر القديمة، ولم اتصل بها اليونانيون نمت هذه الجذور وترعرعت على أيديهم؛ فها هو هنري

توماس أحد المؤرخين الغربيين يعبر عن ذلك بقوله "إنه على أرض مصر عاش الحكماء الأوائل العظام في التاريخ. ويمكن أن نعتبر هذا القطر معلم الإنسانية الأول فقد نزح إلى مصر الكثير من فلاسفة العالم القديم حتى أن **أفلاطون** – أعظم فلاسفة اليونان – اعترف بفضل المصريين القدماء عليه كرواده وأساتذته في كل ما هو سام من عمل أو فكر. ولذا يمكن إرجاع كل التفكير الحديث إلى حكمة المصريين وذلك عن طريق **أفلاطون** والفلاسفة اليونانيين الآخرين؛ فقد أخذ اليونانيون فلسفتهم عن الشرق. والغربيون المحدثون بدورهم أخذو فلسفتهم عن اليونان، وهكذا فقد نساب تيار الحكمة عبر الأجيال من غير توقف مبتدئا بالحضارة المصرية وان عرضا مقتضبا للفكر المصري المبكر يوضح لنا أن ما أورثنا إياه **أفلاطون وأرسطو** موجود في فلسفة **بتاح حوتب**. وما تركه لنا **شوبنهور وتولستوى** من تراث ممثلا في حكمة **أبوور**، كما نجد وحي **اسبينوزا وكانط** في رؤى **إخناتون**".

وعليه لا عيب في القول إن الحضارات الشرقية القديمة بما في ذلك مصر قد صدرت عن مقومات روحية وهذا ما يميزها عن الحضارة الإغريقية. وسنحاول هنا عرض بعض ملامح الفكر المصري القديم. يجدر إشارة أن أقدم صور الحكمة المصرية القديمة يمكن أن نلمسها في تعاليم **بتاح حوتب** حيث يقال إنه ظهر قبل **كونفيشيوس**.

أهم الأفكار الفلسفية في مصر القديمة:

إذا كان كذلك، فما هي الأفكار الفلسفية التي قدمها المصريون القدماء ومن هم هؤلاء الأعلام الذين أشار إليهم **هنري توماس** وما هي أهم أفكارهم التي تناقلها ومفكرو اليونان وعبرو عنها في كتاباتهم الفلسفية؟!

يجدر الإشارة ان هناك تأثير وتأثر، أخذ اليونانيون فلسفتهم عن الشرق ونحن بدورنا اخذنا فلسفتنا عن اليونانيين، كما يقول " **هنري توماس** "فلا أفكار جديدة تحت الشمس، فالأفكار إنما هي إلا مجرد فكرة قديمة البست ثوبا مختلفا ونراها نحن تحت أضواء مختلفة".

حيث يقول **هنري توماس** في اعلام الفلسفة:" اننا لو تأملنا تاريخ الحضارات الشرقية القديمة لوجدنا ان مقوماتها الأساسية تتباين تماما مع مقومات الحضارة الإغريقية من جميع الوجه، لأن الحضارات الشرقية تهتم بالسماء قبل الأرض "

من أم الأفكار الفلسفية في الحضارة **المصرية القديمة** فكرة الخلود؛ فلقد تأمل الإنسان المصري ظاهرة الموت وحاول أن يجد لها حلا؛ فبعد أن سيطر على مقدرات الطبيعة وسخرها لخدمة وجد أن كل ما حوله يموت وأراد أن يفلسف هذه الظاهرة، فكان أن آمن بأن الموت يعقبه البعث، وأن للإنسان حياة أخرى بعد هذه الحياة التي يعيشها على هذه الأرض وكان أن برر ضرورة هذه الحياة الأخرى تبريرا أخلاقيا على أساس أن أفعال الإنسان في هذه الحياة الدنيا بما فيها من خير وشر لابد أنه سيثاب على الخير منها، ويعاقب على ما فعله من شرور، فكان الايمان بالحياة الأخرى أو الخلود هو الدافع الذي يدفع الإنسان دائما إلى فعل الخير والبعد عن ارتكاب الآثام.

وقد اعتقد الانسان المصري القديم أيضا بفكرة انفصال النفس (**الكا**) عن الجسم (**البا**). وبأن الموت هو موت للجسم فقط وليس للنفس، ومن ثم فإن النفس ستبحث عن ذلك الجسد بعد الموت، وحينما تعثر عليه تبدأ حياة الإنسان الأخرى! ومن هنا كانت محاولات المصريين القدماء للإبقاء على الجسد وكان اختراعهم علم التحنيط الذي يبقى على الجسد بحالته الطبيعية، ومن هنا أيضا كانت عبقريتهم المعمارية والهندسية في بناء الأهرامات، تلك الأبنية الضخمة التي صممت وفق تصميمات هندسية غاية في الدقة لتحافظ على جسد الإله (أي الفرعون).

وقد ارتبطت بهذه الأفكار الميتافيزيقية التي اسهمت في تطور العلم عند المصريين القدماء، فلسفة أخلاقية عمادها ضرورة أن يتصرف الإنسان وفقا للعدالة والنظام (**ماعت–**

Maat)؛ فلا يظلم نفسه، ولا يظلم غيره، ولا يرتكب اثما، فالتبرؤ من الآثام والشرور هو أساس الخلود والنجاة من عقاب الآلهة في الحياة الأخرى.

لقد ساعد اعتقاد المصري القديم في الألوهية في تأكيد الارتباط بين الفعل الأخلاقي الحميد والمصير الحسن الذي سيلقاه في حياته الأخرى. وقد تجسدت هذه الأفكار لدى بعض المفكرين الذين توالت اكتشافات كتاباتهم لدى علماء الآثار منذ فك رموز الكتابة **الهيروغليفية**.

المحاضرة الثالثة (تابع)

بتاح حوتب وفلسفته الأخلاقة:

كان بتاح حوتب حاكما على منف وكبير وزراء الملك أيام الأسرة الخامسة فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده **كتابا يحتوي على الحكمة الخالدة**. لقد كان من أوائل المفكرين المصريين القدماء المفكر الأخلاقي **بتاح حوتب** الذي عاش حوالي **2700 قبل الميلاد** أي قبل ظهور الفكر الغربي عند اليونان بحوالي ستة وعشرين قرنا كاملة. وقد اكتشفت لهذا المفكر ثلاثة وأرعين لوحة ترجمت وأطلق عليها المؤرخون "مخطوط الحكمة" دارت معظمها حول تعليم ابنه الأخلاق الحميدة والحياة الصالحة على الصعيدين الاجتماعي والسياسي وقد رسم فيها **بتاح حوتب** صورة للإنسان الحكيم الذي تعلم الفضيلة وخاصة فضيلة ضبط النفس، حيث كرس نفسه في آخر حياته لتعليم الأطفال لاعتقاده أنه وريث الحكمة على الأرض، وفوق كل هذا كان يحث على تعلم وتعليم الفضيلة –**فضيلة ضبط النفس**– نشير هنا أن هذ المبدأ اصبح فيما بعد أحد أحجار الزوايا في الفكر الأخلاقي اليوناني خاصة عند **سقراط وأفلاطون**.

يقول **بتاح** في ذلك" وإذا كنت ذا سلطان فإسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ...إحذر أن تقاطع الناس وأن تجيب عن الأقوال بحرارة، إبعد ذلك عنك وسيطر على نفسك"

ويقول أيضا" يجب ان تكون أعمالك في مناسبتها وكلماتك في موضعها، فالرجل العاقل لا يتحدث بتاتا في أمور لا يعرف عنها شيئا، ودعني مرة أخرى أحذرك:" اكبح جماح نفسك وألجم لسانك". نلمس ان نصائح وتوجيهات **بتاح حوتب** كثيرة حيث يختتمها بهذه العبارة:" لن يمحي من هذه البلاد إلى أبد الدهر لفظ من الألفاظ المدونة هنا ولكنها ستتخذ نماذج وسيتحدث عنها الأمراء أحسن الحديث... إن كلماتي ستعلم الرجل كيف يتحدث، اجل سيصبح إنسانا حاذقا في الطاعة بارعا في الحديث وسيصيبه الحظ الحسن وسيكون ظريفا إلى يسخر أيام حياته وسيكون راضيا على الدوام".

إن بتاح حوتب كغيره من الحكماء المصريين يؤمن بإله واحد وهذا يؤكد أن فكرة التوحيد إنبثقت من مصرةعلى أرضيها، وكان هذا الإله الواحد الذي أمن به بتاح حوتب في مصر معروف باسم "**أزوريس**" الذي كان يتصف بالأبدية.

لا شك أن فكرة إرتباط الفلسفة بالدين في مصر القديمة قد أعطى الدين عمقا وقدرة على الاستمرار وسمح في النهاية إلى بناء الحضارة المصرية القديمة

ولقد أدرك **بتاح حوتب** العلاقة الوطيدة بين النفس وبين التحلي بكل ما هو فاضل ومحمود أي بكل ما هو أخلاقي؛ فالتحلي بهذه الفضيلة من شأنه في نظر مفكرنا الحفاظ على الصداقة والحفاظ على الثقة بين الفرد وسيده والحفاظ على الحب الأسري بين الزوج والزوجة وبين الآباء والأبناء والأمهات والأخوال...الخ والتحلي بهذه الفضيلة لا يكون بالطبع إلا إذا أعمل الإنسان عقله في كل سلوك يسلكه وقد عبر **بتاح** عن ذلك بقوله في عبارة ذات مغزى "اتبع لبك (أي عقلك) ما دمت حيا".

إخناتون وفلسفته الدينية والاجتماعية:

ويكفي أن نضرب مثالا آخر من المفكرين المصريين القدماء **بإخناتون،** ذلك الملك الفيلسوف الذي عاش في حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وكان يسمى **أمنحوتب** الرابع، وغيره ليصبح **إخناتون** أي المكرس للإله **أتون،** وليبدأ ثورة فكرية دينية – أخلاقية اجتماعية لم يعرف لها التاريخ القديم شبيها؛ فقد رأى الحق في أن يصور إلها واحدا أعظم فوق جسم الأرض. أنه الإله الحي المبدع للحياة وخالق كل شيء، مسير الأشياء حسب مشيئته رابط جميع الأقطار والأمم برباط محبته. كانت نزعة التوحيد واضحة لدى الملك الفيلسوف الذي ظهر حوالي ألف واربعمائة عام قبل المسيح.كان **أخناتون** يلقب بالمنشق العظيم لأنه كان أول من إنشق على التقليد الذي كان سائدا في مصر القديمة، حيث هاجم العقيدة **آمون** واعتبر أن تلك العقيدة رجس. ويجدر الإشارة أن أخناتون تأثر ببتاح حوتب.

وبالطبع فإن هذا الاعتقاد بواحدية الإله وبصورته المجردة التي لا يقلل منها أنه رمز إلى الإله بقرص الشمس لم يأت مصادفة بل بعد تفكير طويل وتأويل عقلي سما فيه عقل **إخناتون** إلى ما وراء الإدراك المادي. وقد فاق هذا التصور للألوهية على هذا النحو التصوري الساعي نحو التجريد الميتافيزيقي تصورات معظم فلاسفة اليونان؛ إذ لم تصبح الألوهية موضوعا لتفلسف هؤلاء إلا في عصر متأخر نسبيا على يد **أفلاطون وأرسطو**.

كان إخناتون مثالا للطهر والأمانة فلم يرضيه **اتجار الكهنة في السحر والرقي وإستخدامهم نبوءات آمون للضغط على الأفكار باسم الدين،** وتمسكهم بمبدأ تعدد الالهة بدلا من الإله الواحد، هذا ما زاد في **انحطاط الأخلاقي** حيث تحولت العبادة إلى شعوذة والفساد. لذلك سعى إلى وضع حد لهذا الفساد فبدأ بثورة دينية أخلاقية موضحا أن ليس للعالم إلا إله واحد .

ولم يقتصر فكر **إخناتون** على هذه الآراء الهامة حول واحدية الإله، بل كان صاحب فكر أخلاقي واجتماعي وسياسي راقي؛ حيث بنى مدينة جديدة أطلق عليها اسم "**أخيتاتون**" في العمارنة ليعبد فيها الإله الواحد، ولتكون الأخلاق السامية والعلاقات الاجتماعية الحميمة هي السائدة بين أهلها. وكان **إخناتون** في كل ما فعله يحلم بأن يحقق أسمى ما يمكن أن يتصوره إنسان؛ دولة عالمية واحدة، يسودها الاعتقاد في إله واحد، ويخضع الجميع فيها لقانون عالمي واحد.

ولما كان بعض المؤرخين يرجح أنه كانت هناك جالية **مسينية** (وهم سيعرفون فيما بعد باليونانيين) موجودة في منطقة العمارنة التي استقر فيها **إخناتون**، فمن المرجح أن أفكاره قد انتقلت منهم أو عبرهم إلى بلاد اليونان في آسيا الصغرى مباشرة أو عبر كريت التي كانت تلعب في ذلك الوقت دور الوسيط بين مصر وبلاد اليونان.

وعلى كل حال فإن من الثابت بموجب كتابات المؤرخين واكتشافات الأثريين المتتاليين أن معظم فلاسفة اليونان قد زاروا مصر القديمة واطلعوا على تراثها الفكري الضخم وتأثروا به ونقلوا عنه وسيتضح لنا ذلك من الحديث عن آراء الفلاسفة اليونان من أمثال **طاليس وفيثاغورس وديمقريطس وأفلاطون**.

المحاضرة الرابعة

الفلسفة الصينية القديمة:

لقد تزامنت الحضارة الصينية القديمة مع العصور المتأخرة للحضارة المصرية القديمة، إذ بلغت نضجها على يد المفكرين العظام من أمثال **كونشيوس ولاؤتسي** في القرن السادس قبل الميلاد، تمثل الفلسفة الكونفوشيوسية أهم وأعظم الإبداعات الفكرية الصينية على مدار التاريخ الصيني القديم والمتوسط والحديث، والمعاصر، إذ لا تزال هذه الأفكار الكونفوشيوسية تؤثر بشكل واضح في الاتجاهات الفكرية المعاصرة مع مراحل التحديث في الصين وفي جنوب شرقي آسيا، كما لا يزال يؤثر علميا في الحياة اليومية للناس..

وقد تميز الفكر الفلسفي الصيني بنزعة إنسانية واضحة، وقد بدأت هذه النزعة الإنسانية تسود الفكر الصيني منذ بداية الوعي الفلسفي الحقيقي لدى الإنسان الصيني، وتميزت هذه النزعة الانسانية بالتركيز على وحدة الانسان وعلى التكامل بين الانسان والطبيعة واعتبار الانسان هو وسيلة تحقيق القيم المطلقة في العالم.

(أ) فلسفة كونفشيوس:

إن المفكر والفيلسوف الصيني الكبير "**كونفوشيوس**" هو واضع أسس المدرسة الكونفوشيوسية التي اشتقت تسميتها الواضحة من اسمه. كما أن عددا من المفكرين اللاحقين له والمتأثرين به، على امتداد الخمسة والعشرين قرنا الماضية، من أمثال المفكر "**مونشيوس**" المعلم الثاني للكونفوشيوسية، والمفكر يذكر أ. توينبي أنه "في فترة لا تتجاوز المئة والعشرين من السنين ظهر خمسة من كبار الحكماء

وكان "**كونفوشيوس**" أحد هؤلاء الحكماء الخمسة الكبار؛ وهو واضع باكورة الفلسفة الصينية ومؤسسها مع المفكر لاو تزو؛ وما يزال تراثه الفكري يؤثر بعمق، بشكل مباشر أو

غير مباشر، في حوالي ثلث سكان العالم. إذ يعتبر فكر "كونفوشيوس" المؤثر الأول والأساس في ذهن وفكر وأخلاق وتقاليد الصينيين.

أثرت الظروف التي عاشها كونفوشيوس كثيرا على انتاجاته الفكرية الغنية، بحيث إن واقع الفقر الذي عاشه في طفولته بالرغم من نبالة أصله، جعله يتجه نحو تقدير الأشخاص الفضلاء ن الناس. ففي الفترة التي عاشها كونفوشيوس، كانت الطبقات النبيلة أو الاقطاعية ما تزال تلعب دورها الهام في الحياة السياسية، إلى جانب دورها الأهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وكانت مجمل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتاريخية قد أثرت تأثيرا مباشرا على الانتاج الفكري عند كونفوشيوس، وذلك من خلال ما كونته من اهتمامات ونوازع ذاتية وموضوعية عامة، جعلته يتجه ذلك الاتجاه المقدر للقيم والتقاليد والآداب السابقة. فوجد كونفوشيوس في التراث الثقافي التاريخي الصيني أصل ابداعات الحضارة الصينية الرائعة؛ وهو الأمر الذي جعله يصب كل انتاجاته الفكرية في جمع ذلك التراث وتشذيبه والتعليق عليه.

عاش **كونفوشيوس،** مثل **لاوتزو،** في أواخر المرحلة التاريخية المسماة **"فترة الربيع والخريف"** (722-481 ق.م.)؛ وهي المرحلة العصيبة من تاريخ الصين القديم التي عرفت بالاضطرابات وبانحلال القيم والتقاليد القديمة، مما جعل الحالة العامة في نظر المفكرين في تلك المرحلة، قاتمة السواد. حاول "**كونفوشيوس**"، كما حاول "**لاوتزو**" وغيره من المفكرين، البحث عن الوسائل الكفيلة بإيجاد الحلول الازمة لأزمات البلاد المستعصية.

تنطلق نوازع **كونفوشيوس** ومؤثراته الفكرية، من التناقض الظاهر بين الواقع الحاضر البائس، بين الماضي المزدهر لبلاده، ففي الوقت الذي كان يعبر فيه عن تألمه حيال مآسي واقع البلاد وانهيار النظم المختلفة، كان يظهر شغفه بالتراث الثقافي والحضاري المجسدة للإبداعات الثقافية وللاستقرار السياسي السعيد لحكم أسرة "**تشو**" التي حكمت المنطقة.

توصل كونفوشيوس إلى الاعتقاد، من خلال المقارنة ما بين الواقع الصيني البائس والماضي السعيد، بأن سبب انقسام الدولة إلى ولايات يحكم كل منها أمير وسبب مصائب البلاد عامة يعود إلى انحلال القيم الخلقية الفاضلة وغياب النظام؛ وهو ما أدى إلى سوء الأوضاع الاجتماعية، وأوصل البلاد إلى سيطرة الوزراء ونوابهم، الأمر الذي كان يدفع الناس إلى الثورة لتقويم اعوجاج الحكم والحكام.

كانت طريق **كونفوشيوس** للوصول إلى تحقيق مراده، كغيره من المفكرين في تلك المرحلة، تمكن في شغل المناصب الهامة التي كان يأمل عبرها، بأن يستطيع تحقيق غاياته في الإصلاح. وحين فشل في ذلك، انصرف إلى تعليم الشباب وتثقيفهم، لكي يعملوا هم على تحقيق الأهداف التي عجز هو عن تحقيقها عبر توليه الوظيفة العامة. وتكونت في داره، عن طريق التدريس، أول مدرسة حرة في تاريخ الصين؛ لأن المدارس في تلك المرجلة، كانت ملحقة بقصور الملوك والأمراء، لكي تدرس أبناء الطبقة الأرستقراطية وتؤهلهم لشغل المناصب الحكومية. أما كونفوشيوس، فكان مراده من التعليم شيئا آخر، وهو تنمية العلم والثقافة عند تلامذته وإنارة عقولهم، لكي يقوموا بأدوار فاعلة ويخدم الصالح العام حين يشغلون الوظائف العامة.

كان كونفوشيوس يؤمن إيمانا عميقا بحق كل إنسان في التعلم، غنيا كان أم فقيرا؛ فقد قال "يجب أن تزول الاختلافات الطبقية من التعليم. وإنني لم أرفض قط تعليم أي فرد حتى إن وفد إلى على الأقدام وليس لديه ما يقدمه مقابل تعليمه سوى قطعة من اللحم الجاف". إذ كان يرى في هؤلاء التلاميذ رأي كونفوشيوس بأن السبيل الوحيد الذي يوصل إلى اصلاح المجتمع، هو العودة إلى التمسك بالشعائر والآداب والتقاليد الأخلاقية الفاضلة. ولكنه رأى بأن أول شيء يحقق الوصول إلى إصلاح الأوضاع واستقامة الأمور في المجتمع، هو اصلاح جملة من الأمور والقيام بمجموعة من الواجبات الملقاة على عاتق كل فرد من أفراد المجتمع.

ورأى بأن الطريق الموصل إلى الأخلاق الفاضلة؛ إذ عبرها فقط تتحقق إمكانية إصلاح المجتمع. ففي المعرفة الواضحة وفي التقيد بالواجبات والالتزامات، تكون طريق الإصلاح.

والمعرفة الحقة عند **كونفوشيوس** هي أساس الإصلاح؛ وهي تكمن في تعارف. الناس وتفاهمهم قبل كل شيء، على معاني الكلمات والتعابير؛ لأنه وجد بأن الناس كثيرا ما يتحادثون ويتخاطبون، وقد غابت غنهم أحيانا المعاني الحقيقية للكلمات؛ بحيث إنهم يتخاطبون بكلمات لم تعد تحمل المعاني المشتركة، لا سيما منها تلك الكلمات الدالة على القيم التي تنظم المجتمع وتحدد قيم العلاقات وأصول التعامل بين الناس. فقد أجاب مثلا عن ماهية الحكومة الصالحة بالقول: "توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميرا، والوزير وزيرا، والأب أبا، والابن ابنا"

ولم يقصد كونفوشيوس بذلك تولي كل إنسان اختصاصه فقط من ضمن التعبير الذي يقصد كنهه ومعناه؛ بل كان يروم من ذلك التركيز على دقة التعبير في إيراد الأسماء والمسميات والصفات في مكانها الصحيح؛ لأن الكثير من العيوب، غطتها الألفاظ. وفي هذا الصدد، ركز **كونفوشيوس** في تصوره لإصلاح المجتمع، على الإنسان الفرد.

ورأى بأنه لا يمكن أن يقوم النظام الاجتماعي على أسس أخلاقية سليمة، ما لم يتم صلاح الإنسان؛ بحيث يكون متمتعا بالمزايا الخلقية العالية التي يتحقق بها، وجود الإنسان الأعلى؛ إذ أن " تنمية الحياة الشخصية، هي أساس كل شيء"، رأى **كونفوشيوس** بأن الإنسان الفرد الصالح هو القاعدة، وهو الأساس في الانطلاق نحو تحقيق إصلاح المجتمع. ورأى بأن الإنسان الصالح الفاضل هو

إذن إن القاعدة التي يجب أن يسير عليها "الرجل الأعلى" (أي "الرجل الماجد") عند كونفوشيوس، تتلخص في كلمة واحدة، هي "المبادلة"؛ أي أنه يجب أن تكون العلاقات بين الناس، قائمة على مبدأ المعاملة بالمثل.

الخاتمة:

استطاع المفكر الكبير كونفوشيوس، عن طريق كتاباته وتعليقاته العديدة، أن يضع جملة كبيرة من الأفكار والعقائد التي تحولت في فترة لا تزيد عن الثلاثة قرون، لتصبح عقيدة يؤمن بها أكثر الصينيين؛ وطبعت الإنسان الصيني وثقافته بطابعها المتميز بالبساطة والتواضع والجلد والرغبة المتأصلة في احترام العادات والتقاليد والآداب الفاضلة المتوارثة. وأصبحت مبادئ كونفوشيوس الخلقية وقناعاته الصلبة المتعلقة بالعادات والتقاليد والآداب المتدخلة في جميع جوانب العلاقات الإنسانية، الاجتماعية منها والسياسية، أساس البناء الأسري الاجتماعي والسياسي على مدار تاريخ الصين الطويل.